الفصل الثالث

النضال في سبيل الوحدة

كانت الازمة التي انقضت على العالم الرأسمالي ابتداء من ١٩٢٩ تفوق كثيراً بقوتها ونتائجها جميع الازمات الدورية السابقة . فقد تدنى الانتاج العالمي — باستثناء انتاج الاتحاد السوفياتي — بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٢ بنسبة ٤٠ بالمئة ، والتجارة العالمية تدنت بنسبة ٦٠ بالمئة . وكان بعض المنتجين يتلفون الحنطة والضأن ويقتلعون فسائل القطن وجذوع الكرمة ، ويلقون بالبن الى البحر ، بينما البؤس يتزايد ، والمجاعة تتفشى في الهند والصين ، والاحصاءات الرسمية تعترف بوجود ثلاثين مليوناً من العاطلين عن العمل .

وكانت الحواجز الجمركية ترتفع من كل ناحية وصوب . ودورة السلع والبضائع تتباطأ وتخف ثم تتوقف ، والبلاد الاشد قوة تتنازع فيما بينها اسواق البلاد الضعيفة ، واحتمالات نشوب الحرب العالمية تشتد وتتضاعف .

وألمت الازمة بالمنهزمين في حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ بخاصة ، فتدنى الانتـــاج الصناعي في المانية حتى بلغ ارقاماً مخوفة ، وكشرت الازمة الزراعية عن نواجذها ؛ في هذه البيئة رأينا نمو الهتلرية وترعرعها .

وفي الانتخـــابات الالمانية عام ١٩٣٠ ظل عدد الاصوات العمالية على ما كان عليه تقريبـــاً ، وتحول بعض اصوات الاشتراكيين لصالح الشيوعيين ، وتدهورت احزاب الوسط البورجوازية ومنيت بهزيمة نكراء . ولكن اتباع هتلر نالوا ٦ ملايين صوت .

لقد صدفت الجماهير البورجوازية الصغيرة ، بتأثير الازمة ، عن الاحزاب البورجوازية التقليدية ولم تتجه شطر الطبقة العاملة المشتتة ، بل انها اتجهت الى الفاشية مخدوعة بتهاويلها وتهويش زعمائها .

وكان الحزب الشيوعي الالماني يواجه الخطر ، ويجهد عبثاً لخلق جبهة موحدة مع الحزب الاشتراكي .

وكانت الفئـات التي تحاول الصمود في وجه الديكتاتورية الهتلرية الصاعدة تؤكد كلها – ما عدا الشيوعيين – ان القومية الاشتراكية سيصيبها التفسخ والانحلال عما قريب . وفي انتخابات تشرين الثاني ١٩٣٣ خسر النازيون مليونين من الاصوات . فقام الاشتراكيون الديموقراطيون ينادون « بتلاشي الهتلرية » نهائياً ، وفي صحيفة «الشعبي» كتب ليون بلوم :

« لقد سدت ابواب الحكم ، بعد الآن ، في وجه النازيين . ولن تقوم لهم قائمة، لقد ظفرت الاشتراكية الديموقراطية بهتلر ».

وبعد مضي شهرين على هذه « النبوءة » العظيمة ، اي في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ دعا هندنبورغ هتلر الى تسلم الاحكام .

من هذه الوقائع يسعنا ان نستخلص ثلاث فوائد :

١ — لقد ضمنت جمهورية ويمار انقاذ الرأسمالية وخنقت ثورة ١٩١٨ ودمرت باسم « الديموقراطية » ، طليعة الطبقة العـــاملة المناضلة ، وهي دعامة الديموقراطية الصحيحة .

٢ — أيدت الاشتراكية الديموقراطية والنقابات الاصلاحية سياسة « التضحيات » والتعدي على الحريات ، تلك السياسة التي فرضتهـا الحكومات البورجوازية ، والاحزاب الاشتراكية الديموقراطية هي التي شقت الطريق للفـاشية ، بحجة اختيارهـا الطريق « الاقل سوءاً » .

٣ — ان الاشتراكية الديموقراطية وزعماء النقابات برفضهم الجبهـة الموحدة للطبقة العـاملة قد عزلوا البروليتاريا وجردوها من سلاحها .

وانها لدروس قاسية، كان علينا ان لا نهملها، نحن المناضلين في صفوف الطبقة العاملة في فرنسة ! ألم نكن معرضين ، في مستقبلنا القريب، لمثـل هذا الموقف ؟ ألم ينهض « مفكرون » فرنسيون وساسة قوميون ، ينادون بتعميق الفردية الفرنسية ،

وتفوق شعبنا الحر المتكبر المختال ، على الجماهير الالمانية المجندة المعودة على الطاعة العسكرية العمياء والانضباط السلبي الاحمق ؟ أجل . كان من المنتظر أن تعود ايام الامبراطورية الثانية ، وحركة مبدأ القوميات ، و « النظام المعنوي » و « البولانجية » الخ... الخ... فاذا لم تفضح الطبقة العـــاملة ألاعيب اعدائها ومؤامراتهم ، واذا افسحت المجال في فرنسا للتحديات والجرائم التي نهض رفيقنا ديمتروف يكشف عنها القناع في محكمة لينبرغ (١٩٣٣) فان بلادنا ، قد تتعرض ، هي ايضاً ، لمأساة دامية ، وديكتاتورية فاشية ، تذبح العمال ، وتعطل الحريات وتسلم فرنسا لهتلر وموسوليني .

وبدأ الاقتصاد الفرنسي يعـاني الازمة ، بعد ان أفاد مدة طويـــلة من ظروف مؤاتية : وجود اسواق داخلية واسعة ، ومعدل وسط لثبات الفرنك ، يتيح التصدير على نحو واسع . ولكن هذه الجزيرة الصغيرة من الرخاء سرعان ما ابتلعتهـا امواج الازمة المتصاعدة .

وبين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٥ تدنى الانتاج الفرنسي ٣٣ بالمئة، واتسعت البطالة ، وتدنى الدخل القومي تدنياً عاماً بمعدل ٣٠ بالمئة ، وزادت الازمة في ظاهرات التمركز الرأسمالي، وفرض كارتل الصناعات المتحدة اسعاره الحصرية ، جانياً ارباحاً فاحشة .

وعلى العكس كانت الطبقات المتوسطة تفتقر شيئاً فشيئاً ، وبين ١٩٣٠ و ١٩٣٢ نقص عدد صغار التجار مئة الف تاجر .

وحملت الازمة البورجوازيين الصغـــار الى نمط من الحياة الاقتصادية الخطرة التي يعوزها الضمان ، ويبدو مستقبلها قاتماً .

وكانت هذه الطبقات تفقد شيئاً فشيئاً اوهامها في حريتها الاجتماعية والسياسية . امـــا البروليتاريه ، وقد مستها الازمة بأعظم الاذى . فكانت تناضل في سبيل شروط معيشتها ، انها حال صورها ماركس ، فأحسن تصويرها :

« كلما تدنى عدد سلاطين رأس المال ، الذين يتفردون بجميع فوائد هذه المرحلة من التطور الاجتماعي ، ويحصرونها بايديهم ، ازداد البؤس والاضطهـــاد والرق ، والانحلال ، والاستثمار ، ولكن تزداد ايضاً مقاومة الطبقة العاملة ، المتصاعدة بلا انقطاع ، المتعاظمة اكثر فأكثر ، الموحدة ، المنظمة بسبب من آلية الانتاج الرأسمالي نفسه(١) »

وكان الاغنياء يريدون ان يحلوا الازمة على حساب العمال . فطالبوا بسياسة تحقق تخفيض الاجور ، وتفرض الحماية الجمركية ، ضد البضاعة الاجنبية ، وتفرض حصراً داخلياً حقيقياً ، ونظام كفاية اوتارسية اقتصادية في « امبراطورية فرنسية مؤلفة من ١٠٠ مليون من السكان ، » وكان الرأسماليون يطمحون الى صيغة نظام سياسي يتيح لهم بلوغ هذه الاهداف ؛ وهذه الصيغة هي الفاشية .

---

(١) كارل ماركس - رأس المال الكتاب الاول الجزء الثالث الفصل الثاني والثلاثون .

وكان اصحاب الامتيازات يجهدون ، شأنهم في المانيا وايطاليا ، لكسب الانصار ، بين العناصر المنحلة في البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا السفلى ، وكانت الحركة الرجعية قد نظمت صفوفها منذ زمن طويل : فالفاشية تريد استغلال قضية ستافسكي ، وهي فضيحة مالية اشترك فيها بعض رجال الندوة النيابية ، وفجأة كشفت الفاشية عن وجهها الصحيح ، مستسلمة لديماغوجيّة محمومة . وفي ٦ شباط ١٩٣٤ هاجم المشاغبون الفاشيون قصر المجلس الوطني ، وكان بعض رجال السراي واساطين السياسة يتقدمون المهاجمين وهم يهتفون « فليسقط اللصوص ! » واثر ظهور العصابات المسلحة — الصلبان النارية ، والشبان الملكيين ، وفرق الكتائب القومية ، والفرانسيستية — واعمالهم العدوانية العنيفة ، فدفعت العمال الى الاتحاد بعد ان عجزت عن ذلك خمسة عشر عاماً من العروض والدعوات ! وادى هيجان الفاشيين وجنونهم ودعوتهم الى المذابح ، وصيحاتهم الحاقدة الموجهة الى العمال (كانوا يدعونهم لصوصاً ودهماء !) والمعارك التي اعتمدوا خوضها لتحقير المؤسسات الجمهورية وتدنيس كل ما في البلاد من عناصر الشرف والعافية والكرامة ، ادى كل هذا الى صهر الشعب في كتلة واحدة عازمة على تجنيب فرنسا ويلات الفاشية وذلها .

طردت هذه الحركة الفاشية الراديكاليين من الحكم ، وجاءت بحكومة بين اعضائها بيتان ولافال ، فكتبت صحيفة

رجعية تقول : لقد انتصرت ثورة اليمين .

ولكن لم يكن ذلك الا انتصاراً مؤقتاً ، فان عواقب السادس من شباط جاءت معاكسة تماماً لآمال الحركة الرجعية ومراميها .

وهكذا قدر لنا ان نشهد مولد حدث عظيم على وهج الحرائق التي اشعلتها العصابات الفاشية ، ولم يكن ذلك ديكتاتورية « بيتان » او « لاروك » ، بل اتحاد الطبقة العاملة ، ونشوء الجبهة الشعبية المتحدة . وبوثبة رائعة ، ولدى اول اشارة من الحزب الشيوعي ، اندفع عمال باريس ناهضين ، وكان ٢٥٠٠٠ عامل قد صمدوا يوم ٦ شباط للمشاغبين ، وفتحت هذه الحركة الاولى ابواب الامل ، وكان الشيوعيون على حق ، فليست الديكتاتورية الفاشية مرحلة محتومة ، وسنشهد نشوء الجبهة الشعبية الموحدة ، في غمرة الصراع ضد الفاشيين ، والطبقة العاملة الفرنسية ، وقد شددت بالتجارب الاممية قبضتها ، ستدلل على انها حقاً سليلة مناضلي الكومون الامينة على تقاليدهم الثورية المجيدة .

دعا الحزب الشيوعي البروليتاريا الباريسية الى الرد . وفي التاسع من شباط احتل الطرقات ٥٠٠٠٠٠ عامل اشتبكوا في كل مكان مع الشرطة ، طوال خمس ساعات ، من ساحة الجمهورية الى محطة الشرق وكان العمال يهتفون « الجمهوريات السوفياتية في كل مكان ! فلتسقط الفاشية ! » وغادر كثير من العمال

الاشتراكيين مصانعهم وانضموا الى رفاقهم الشيوعيين ، وكان سكان الاحياء الشعبية ، حيث تجري المعارك ، يشدون ازر المتظاهرين . وسقط ستة من العمال في ساحة الشرف ليقطعوا الطريق على الفاشية ، فلنمجد هؤلاء الابطال البروليتاريين ، لقد اثبتت الطبقة العاملة ، في معركة الطليعة هذه ، انها تحسن النضال ، والطلقات النارية التي طرحت ابناء الشعب على بلاط الشوارع الباريسية كان لها في اعماق الجماهير صدى بعيد ، وكان الوف المناضلين الجدد، ومئات الالوف تنهض لتحل محل القتلى. لا ، لن تمر الفاشية ، ولن يخلي لها العمال الطريق ، وهزيمتها ستكون نتيجة لعمل البروليتاريا ووحدتها واتحادها مع الطبقات المتوسطة المهددة مثلها في رفاهيتها المادية وحرياتها .

بدأ الشيوعيون المعركة ، فأدت مبادرتهم الى التمهيد لنجاح الاضراب العام الذي اعلن في ١٢ شباط ١٩٣٤ ، وعودة القوى الشعبية الى التنظيم والاتحاد ، وتوقف ٤ ملايين ونصف المليون عاملا عن اعمالهم . لقد دقت مظاهرة فنسان طبول النفير وايقظت الهمم الهاجعة ، وجاء هجوم البروليتاريا فتخطى بقوته اللامتناهية ، الهجوم الغادر الذي قامت به العصابات الفاشية ، واثبت هذا الهجوم العمالي ، لخانقي الحرية ان القوة والشجاعة والاتحاد لازالت كلها الى جانب الطبقة العاملة . كانت فرنسا العاملة ، فرنسا القوم الشرفاء ، تنهض لتقاوم الفاشية ، والبؤس والحرب ، وكان العمال الفرنسيون يسيرون بقيادة الحزب

الشيوعي الفرنسي ليهدوا عمال العالم جميعاً الى الوسيلة الناجعة للنضال ضد الفاشية : وهذه الوسيلة ترتكز على تأليف جبهة شعبية واسعة مناهضة للفاشية تتجمع حولها الطبقة العاملة .

* * *

والتأم المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي بين ٢٦ كانون الثاني و ١٠ شباط ١٩٣٤ ، وفي هذا المؤتمر القى الرفيق ستالين خطاباً نيّراً جاء فيه :

« علينا ان لا نعدّ انتصار الفاشية في المانيا بمثابة شارة ضعف منيت به البروليتاريا وحسب ، وبمثابة نتيجة حتمية للخيانات التي اقترفتها الاشتراكية الديمقراطية بالطبقة العاملة ، فشقت الطريق للفاشية ، بل علينا ان نعدّ هذا الانتصار بمثابة ظاهرة تدل على ضعف البورجوازية نفسها، ظاهرة تدل على ان البورجوازية أصبحت عاجزة عن ممارسة الحكم بالطرق التقليدية القديمة ، من برلمانية وديمقراطية بورجوازية ، وهذا ما يضطرها للجوء ، في سياستها الداخلية ، الى ضروب ارهابية في الحكم ، انها ظاهرة تدل على ان البورجوازية لم تعد تتمتع بالقوة التي تتيح لها ان تجد مخرجاً لحالتها الراهنة ، على قاعدة من السياسة الخارجية السلمية ، وهذا ما يحملها على اللجوء الى سياسة الحرب (١)

الفاشية هي الحرب ، والنضال ضد الفاشية هو الصراع

(١) ستالين ، قضايا اللينينية .

في سبيل السلام . كان الموقف واضحاً جلياً : فمن جهة ، يشتد خطر الازمة الماثلة في العالم ، والتي تدفع الدول الرأسمالية الى التنازع فيما بينها ، خلال معركة لا رحمة فيها ولا هوادة ، ومن جهة ثانية على الصعيد الداخلي ، يجري استعباد الطبقة العاملة ، بدعم اسس الديكتاتورية والارهاب ، لتقوية مؤخرات الجبهات العسكرية في المستقبل .

كانت رغبة الفئات الحاكمة في القضاء على الديموقراطية ، وسياستها العنيفة الارهابية ، توجبان الينا سياستنا ، فكان علينا ان نحمي الديموقرطية ونحمل الطبقات البورجوازية الصغيرة على النضال في سبيل حرياتها المهددة ، ودعوة البروليتاريا لحماية مصالحها الخاصة ، ومصالح الطبقات المتوسطة ، في وقت معاً ، وهذه وتلك كان يهددهما معاً رأس المال الكبير . كنا بدفاعنا عن الجمهورية ندافع عن الطبقة العاملة ونمهد لها طريق مستقبلها .

ومنذ اوائل سنة ١٩٣٤ بدأنا نشير الى اهمية نشوء جبهة موحدة واسعة ، تجمع الجمهوريين ، والديموقراطيين ، والتحرريين والاشتراكيين والشيوعيين — البروليتاريا والطبقات الوسطى — جبهة يكون من اول اهدافها مجابهة الفاشية ، ولكن القادة الاشتراكيين كانوا يقيمون في وجوهنا الحواجز والعقبات ، وكانوا يقولون : « ان الوحدة العضوية ، باندماج الحزبين ، افضل من وحدة العمل مع المحافظة على استقلال الحزبين ، اذن

فلنحقق الوحدة العضوية ! » فنجيب : « ان افضل طريقة تمهد للاندماج الحزبين هي وحدة العمل بذات » والحاز العمال الى صفوفنا .

وكان بعض القادة الاشتراكيين يريدون ان يحصروا قضية وحدة البروليتاريا ، تلك القضية العظمى ، في حدود ضيقة تافهة ، وكانوا يقترحون ابرام المفاوضات ، بميثاق « عدم اعتداء » وما كانوا يرون في وحدة العمل الا وسيلة لوقفنا عن توجيه النقد الى احزابهم ، فأجبنا بأن الامر لا يتعلق ببلسمة الكبرياء الشخصية الجريح ، بل بتنظيم النضال المشترك ، وبدلاً من ميثاق « عدم اعتداء » اقترحنا ميثاقاً لوحدة طبقية .

وكان النضال الموحد قد بدأ في ارجاء البلاد ، وكانت الارياف تردد صرخة « وحدة العمل » تلك التي اطلقتها عشرات الالوف من المتظاهرين في فنسان ، في ١٢ شباط ١٩٣٤ ، وكانت هذه الصرخة تدوي في كل مكان ، حيث يقود الكولونيل « لاروك » جيوشه المجندة للحروب الاهلية .

وكنا عازمين على بذل التضحيات الضرورية لتحقيق الوحدة ، وفي مؤتمرنا الوطني بايفري ، حزيران ١٩٣٤ ، لم يكن يشغلنا الا فكرة واحدة : الوحدة .

وكان قادة الحزب الاشتراكي يقولون لنا : « لا توجهوا عروض العمل المشترك الى جماهير حزبنا ، بل وجهوها الينا وحسب » . فكنا نجيب : « ليست هذه مشكلة ، فسنخاطب

اعضاء حزبكم ، ثم نخاطبكم ايضاً » ، فيقولون : « كفوا عن انتقادنا » فنجيب : « سنعمد الى انتقاد من لا يحافظ على وحدة العمل ، انتقاداً عنيفاً ».

وكان بعض الاشتراكيين يتهموننا في اخلاصنا ، ولكن ارادتنا الحازمة ، ونياتنا الصافية ، وعنادنا الصامد ، تنفي هذه التهمة وتكذب اصحابها .

كنا نريد الوحدة ، ونطلبها بعناد وحماسة .

ولم تكن المعارك التي سالت فيها ، منذ ٩ شباط ، دماء سبعة عشر شهيداً ، الا البداءة . وفي السباق السريع بيننا وبين الفاشية ، كانت البورجوازية ترمي الى حيازة قصب السبق . فاذا لم نتوصل الى بذل جهودنا ، اكثر فاكثر ، واذا لم نضاعف هذه الجهود مراراً عدة ، في سبيل الجبهة الموحدة ، فقد تكسب الفاشية المعركة ، وتنتصر على الطبقة العاملة ، غير اننا لا نريد ان تتركز دعائم الفاشية في فرنسا .

نريد العمل مهما كان الثمن .

ومهما كان الثمن نريد ان نعمل متحدين !

وكان هؤلاء الذين يريدون المناقشة والتسويف والتأجيل والتحذلق فيما العدو يدق الابواب ، يذكروننا باولئك اللاهوتيين البيزنطيين الذين كانوا يتناقشون في : هل الملائكة ذكور ام اناث ، والعدو على الابواب .

وفي مقاطعة السين عقد الاتحاد الاشتراكي والمنطقة الشيوعية اتفـــاقاً ، وفي ٢٧ تموز ١٩٣٤ ، وفي غرفة صغيرة من مربع بونفاليه وقع الحزبان الشيوعي والاشتراكي وثيقة «وحدة العمل». كانت هذه الوثيقة في نظرنا التزاماً مقدساً ، فالاشتراكيون اخوان لنا ، ونحن نغتبط بانتصاراتهم كأنها انتصارات لنـا . وكانت اكثرية العمال الاشتراكيين الساحقة تتجاوب من اعماق قلوبها مع مشاعرنا الاخوية ، اما في اتصالاتنـا بقادتهم فكان الميثاق في نظرنا بداءة اكثر منه غاية . لقد ركزنا دعائم وحدة الطبقة العاملة ، وعلينا الآن توسيع اتحادنا ليشمل الطبقـــات المتوسطة ، ولنضمن نحن هزيمة الفاشية .

جهدت في مؤتمر ايفري لتبديد سحب الخلاف بيننـا وبين الراديكاليين والجمهوريين المخلصين وكنا نراعي الموقف الجديد والظروف الناشئة عنه وكنا نؤكد ارادة حزبنـا الشيوعي في الدفاع عن الحريات الديموقراطية . ألم يقـل انكلز ولينين « بان النظام الجمهوري هو افضل انظمة الحكم للطبقة العـاملة في ظل الرأسمالية ؟ » وصرحت ، بعد ، بما صرحت به من قبل خمسة عشر شهراً في المجلس النيـابي : « نحن الشيوعيين نحب بلادنا . نحن نحب فرنسة وطننا ، ارض الثورات التاريخية ، ومهد الانسانية والحريات » وكنا نصرح بان المسألة لم تكن تنحصر في الاختيار بين الشيوعية والفاشية بل بين الفاشية والديموقراطية .

كان لهذه التصريحات في ارجاء البلاد صدى بعيد ، ولم تلبث

الحركة الرجعية ان غيرت مواقعها ووجهت رمايتها وجهة اخرى، ففي البدء ، كانت توجه الينا التهمة « بأننا ماركسيون لينينيون، اما بعد مؤتمر ايفري ، فشهدنا هذه المهزلة السافرة : اذ وجدت الماركسية اللينينية حماة لم يكن ينتظرهم احد . حماة يتهموننا « بنسيان تعاليم ماركس العظيم ولينين الخالد ! » كنا ندافع عن الحريات الديموقراطية بحرارة وقوة بقدر ما كنا نريد توسيع هذه الحريات وتعميقها ، وليست ديكتاتورية البروليتاريا ، وهي الديموقراطية الكاملة التي تشمل الشعب كله ، الا تطبيقاً لكلمة سان جوست « لا حرية للذين يسفكون دم الحرية ! »

وفي التاسع من اكتوبر ١٩٣٤ وفي الرابع والعشرين منه تكلمت في قاعة بوليبه في باريس ، ثم في نانت ، فدعوت الى الوحدة في كل جبهة شعبية مشتركة في «سبيل الخبز والحرية والسلم» واول مرة وضعت هذه الصيغة التي تقود شعب فرنسا الى النصر ، وقلت ايضاً « ليس صحيحاً انه لا خيار الا بين سياسة الوحدة القومية ونظام حكم السوفيات . بل ثمة مجال لسياسة شعبية بوسعها ان تطور الحرية فيما هي تصحح اوضاعها » .

كانت الحركة الرجعية تفهم حق الفهم ان الجبهة الشعبية تستطيع رد هجمات الفاشية وافتتاح عهد من التقدم السياسي والاجتماعي في بلادنا ، فحاولت الرجعية ان تلقي الخوف في قلوب الراديكاليين كما حاولت من قبل ان تستثير مخاوف الاشتراكيين ، واولئك الذين كانوا الى الامس القريب يشتمون الراديكاليين نصبوا الآن انفسهم اساتذة وموجهين . وكانوا

يتخذون لهجة الجلال والرصانة وهم يشرحون لهم ان ليس بوسعهم « تلطيخ سمعتهم باتحادهم مع الشيوعيين » . وكانت الرجعية تعتمد التهديد آناً والتملق آناً لشق صفوف الحزب الراديكالي ، وبذلت جهود اجبارية لاحباط مساعي الدساسين الداعين الى التفرقة ، واعتمدنا لعملنا قاعدة ، فلا نتدخل في الشؤون الداخلية للمنظمات المشتركة في الجبهة الشعبية ، وهكذا جاهد الشيوعيون في سبيل وحدة صفوف القائلين بالجمهورية .

وعلى اثر انتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات البلدية وإزاء عظمة المهرجانات التي اقيمت في عيد ١٤ تموز ١٩٣٥ لم تعترف الجماعة الرأسمالية المسيطرة وعملاؤها بالهزيمة بل كانوا يقولون : استطاعت الجبهة الشعبية ان تنشأ لمقاومة « شيء » ولكنها ستعجز حتماً في المحافظة على وحدتها « لتحقيق شيء » ايجابي ، وسيتبدد شملها اذا حاولت صياغته وتنفيذه ، ولا شك في ان صياغة برامج موحدة تلتزمها الاحزاب الشيوعية والراديكالية والاشتراكية كانت تلاقي بعض الصعوبات وقد تصبح مستحيلة التنفيذ اذا تمسك كل حزب ببرنامجه الخاص .

وللحزب الشيوعي منهجه المعروف الهادف الى التطور الاجتماعي الشامل ، ولكنه لا يهمل مع ذلك المطالب المباشرة ذات الطابع السياسي او الاقتصادي . وكان الاتفاق ممكناً على قاعدة هذه المطالب المباشرة الملحة . والرغبة المخلصة في الاتحاد تتطلب بعض التسامح ولكن القادة الاشتراكيين بدأوا يوجهون

الينا تهمة التفاهمية والرجعية ، ولاننا كنا في سبيل صياغة منهج عملي ، اردنا ان يتضمن مجموعة من الالتزامات الدقيقة المحددة ، لا ان يكون سجلاً لوعود خلابة تلقى الى الناخبين لاغرائهم . واظهرت الايام صحة رأينا ، فالذين كانوا يتمدحون بالشجاعة والاقدام ، حين كنا نبحث في الصيغ العامة، بدأوا يترددون، ويتراجعون حين دارت الابحاث في المطالب الملموسة المحددة ، والذين كانوا يأخذون علينا تساهلنا عهدَ صياغة البرامج المشتركة بدأوا هم انفسهم يتهموننا بالعناد حين تشددنا في طلب التنفيذ الناجز . كان البرنامج المشترك يطالب باعادة الاطمئنان الى النفوس ونزع السلاح من المنظمات الفاشية والفرق القومية ، وحلها حلاً فعلياً ، والغاء القوانين التي تحد من حرية الصحافة ، وضمان الحريات النقابية والحقوق العمالية وتطبيقها على الجميع ، وكان يطالب بتأميم الصناعات الحربية والتعاون الامني في اطار عصبة الامم ، وتوسيع نظام المعاهدات بين الدول ليشمل الدول كافة ، وكان يدعو الى النضال في سبيل السلام ؛ وعلى صعيد الاقتصاد ، كان البرنامج الموحد يرمي الى رفع مستوى معيشة الجماهير وتأسيس صندوق وطني للعاطلين عن العمل ، ونقص ساعات العمل اليومية ، وصرف رواتب تقاعدية ، للشيوخ من العمال ، ومراقبة اسواق الاعتدة الحربية ، واصلاح ضريبي وجمركي يأتي في الاتجاه الديموقراطي . هذه هي الخطوط الكبرى لبرامج الجبهة الشعبية الموحدة ، ولكن هذه البرامج ظلت رغم انتصار الجبهة في انتخابات ١٩٣٦ حبراً على ورق ،

في اكثر بنودها ، وماذا ؟ ذلك لأننا لم ننجح قط في التغلب على الروح العدائية عند القادة الاشتراكيين والراديكاليين الذين كانوا يعارضون في تعيين لجان الجبهة الشعبية في المصانع والقرى ولم ننجح في حمل القادة على القبول بعقد مؤتمر وطني عام للجبهة الشعبية الموحدة مؤلف من مندوبين يعينون في الاجتماعات .

ولو اقيم هذا المؤتمر وانبثقت عنه لجنة وطنية لاستطاعت هذه اللجنة ان تشرف على تطبيق البرامج الشعبية التي كنا اول من قام بها والتي دلت على ايجابيتها وفعاليتها ، ولكن هذه الجبهة لم تبق اكثر من تفاهم بين «الرؤساء» ...

وكنا نواصل جهودنا لتوسيع الجبهة الشعبية ، وتركيز دعائم الوحدة العمالية ، ولم نتوقف قط عن العمل في سبيل الوحدة التامة وفي سبيل حزب عمالي واحد ، وكان علينا تحديد المباديء الاساسية لهذا الحزب الموحد ، فقد رأينا ، من جهة ، ان سياسة الخيانة التي اعتمدتها الاشتراكية الديموقراطية ، ادت الى هزائم بروليتارية عاناها العمال في بلدان عدة ، وبخاصة في انتصار الديكتاتورية النازية في المانيا ، ومن جهة ثانية رأينا ان السياسة الثورية التي اعتمدها الشيوعيون قد ادت الى الديموقراطية السوفياتية ، بانية الاشتراكية . واخيراً : لا يستطيع الانسان ان يفكر بانشاء حزب موحد بلا انضباط حازم دقيق اقره العمال في حرية تامة ويمكن تطبيقه على الجميع ، وكان يمكن ان تلاقي صياغة وثيقة للوحدة العمالية تقدماً محسوساً ، ولكن القادة

الاشتراكيين لم يتحملوا يوماً استمرار المحادثات في منظمات القاعدة ولا اتاحوه . وكانوا يعارضون في جعل مناقشاتنا ، بلجنة التوحيد ، علنية .

منـــذ زمن طويل ، والشطر المستنير من العمال الاجراء منتظم في نقابات . فالدفاع عن الحقوق العماليـة ، مادية كانت ام معنوية ، والصمود دونها في وجوه اصحاب العمل ، والعمل الناشط المشترك لتحسين مصير الطبقة العاملة ، هي كلها اهداف العمل النقابي . فبوسع الحركة النقابية اذن ان تجمع في صفوفها جميع العمال الاجراء ، مهما كانت مذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية؛ وعقيب الحرب العالمية الاولى زرع القادة الاشتراكيون ، وعلى رأسهم ديمولان ، الفتنة والشقاق في الاوساط النقابية ، فنشأ اتحادان عامان للعمل ، يتنازعان النفوذ على الطبقة العاملة .

وكان الحزب الشيوعي يؤازر جهود المناضلين والنقابات الداعية الى الوحدة ، لوضـــع حد للانشقاق ، وادى ذلك الى الاتفـــاق يوم ٢٧ ايلول ١٩٣٥ ثم الى قرارات مؤتمر تولوز التوحيدي (شباط ١٩٣٦) فنشأ (سى جى تى) واحد . فما لبث ان انضم اليه ما يزيد عـلى خمسة ملايين عضو من العمال ، ومن الثاني والعشرين الى الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني انعقد المؤتمر الثامن لحزبنـا الشيوعى ، فمهد هـذا المؤتمر لانتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية .

وكانت الانتخابات البلدية ، في نوار ١٩٣٥ ، والانتخابات

الاقليمية في الصين قد اشارت الى تصاعد القوى الديموقراطية ، وفي اثناء انعقاد مؤتمر حزبنا ، كنا نشعر بانتصار مقبل عظيم ، في انتخابات نيسان ١٩٣٦ ، وفي ذلك المؤتمر ذكرت المندوبين بأن ثرواتنا الوطنية الضخمة ، محصورة بأيدي اسر رأسمالية معدودة ، ولذلك ففرنسا ، وهي من اغنى بلاد الدنيا واجملها ، تجد نفسها على شفا الانحطاط والزوال ، بدلاً من ان تزدهر وتسعد ، وتجد نفسها ممزقة لا موحدة . وضعيفة لا قوية .

لقد عمل التطور الرأسمالي طوال القرن التاسع عشر على تركيز دعائم اقطاعية جديدة ، وهي اقطاعية المال ، انها اقل عدداً من الاقطاعية الزراعية القديمة ولكنها اشد بأساً ، وامضى سلاحاً ، فالرأسماليون يسلبون الحرفيين اموالهم ، ورؤوس الاموال الكبرى تقضي على الصغرى وتمتصها . والتمركز الرأسمالي الذي يقضي على مشروعات صناعية عدة ، يزيد في قوة المشروعات الباقية ، وهكذا تنشأ مصانع عملاقة ضخمة تستخدم الجماهير الساحقة من العمال الاجراء ، لقد حكرت الثروات الناتجة عن عمل الاجيال الفرنسية أقلية من الطفيليين تستثمر لصاحبها جماهير العمال ، فيعاني الشعب الفرنسي الضيق والبطالة والبؤس ، فمن هم سادة فرنسا ؟

« في فرنسا اليوم حوالي خمسين الف شركة مساهمة يضاف اليها بضع مئات من المصارف الخاصة وعدة آف من التكتلات الصناعية التي استطاعت المحافظة على ما يشبه الطابع الفردي ،

ولكن اي هذه المؤسسات نجدها في المراكز القيادية وما عددها ؟

هناك حوالي ثلاثين شركة مالية ومثلها معدنية وعشرون شركة في كل من صناعة الفحم والمناجم . ومئة ثلاثون شركة للكهرباء وعشرون شركة للتأمينات والضمان وعشر شركات للمنتوجات الكيماوية ومثلها للغاز والماء ، واخيراً نجد بعض الشركات الكبرى للخطوط الحديدية ، شركات النقل البحرية ، وهذه كلها لا تتجاوز المئتين عدداً ، وهي متحدة فيما بينها ، متصلة ، متخالطة ، يتلقى بعضها نفوذ بعض، ويدعم بعضها بعضاً، منشئة فوق آلاف الشركات الصغرى ، اسرة رأسمالية قائدة آسرة . ان اصحاب الاسهم في هذه الشركات المئتين ، وقادتها ، هم المئتا اسرة التي تسيطر فعلاً على مقدرات السياسة والاقتصاد في فرنسا .

لقد عرفت فرنسا، منذ ١٣٠ عاماً ، ثلاث ثورات ، وغيرت نظام حكمها خمس مرات ، وخلال هذه الاضطرابات المختلفة ، وهذه الخضات والثورات ، حافظ سادة القوى المالية وحدهم على ثباتهم وسلطانهم ، فتجسد فيهم ، خلال انظمة الحكم المختلفة ، سلطان رأس المال .

ان اصحاب « بنك فرنسا » الاثني عشر هم انفسهم مديرو الشركات الـ ٧٥ وهم يتمتعون بمئة وخمسين مقعداً ، وهذه الشركات الـ ٧٥ موزعة كما يلي :

٣١ مصرفاً خاصاً — ٨ شركات للضمان — ٩ للخطوط الحديدية — ٨ مشروعات للخطوط البحرية ، — ٧ شركات للمعادن وصناعتها — ٨ شركات لمناجم الفحم — ١٢ للصناعات الكيماوية — ٦ مشروعات منوعة .

والرأسمالية تصب كلها في هذا الاتحاد الرهيب ، فحين يجتمع هؤلاء القادة تمتد اصابعهم الاخطبوطية الى جميع ارجاء البلاد فلا تفلت ذرة من النشاط الاقتصادي من مراقبتهم ونظراتهم المتفحصة ، انهم سادة البلاد الحقيقيون ، فهم يمنحون الحكومة والمصارف والمشروعات ، القروض المالية ، او يرفضون ، وهم يصرفون اوراق الخزينة المالية او يتمنعون عن صرفها ، وهم يتلاعبون بالعملة ، فيحمون الفرنك او يرفعونه او يخفضونه... فابحاثهم ومناقشاتهم تستوحي ، قبل كل شيء ، مصالح المشروعات الرأسمالية المالية التي يمثلونها .

هذه هي القوة التي تتحكم بالحكومات وتملي عليها رغباتها اوامر حاسمة ، انها هي التي تقيل الوزارات فتخرق حرمة المفاهيم الديموقراطية الانتخابية ، انها الاسرة الرأسمالية المحدودة التي تفرض على شعب فرنسا حكومات تخدم رأس المال(١) . »

كانت معركتنا ضد المئتي اسرة ترمي الى ضمان مستقبل فرنسا ، وفي سبيل هذه الغاية كان علينا العمل على توحيد الامة

---

(١) موريس توريز — في سبيل سياسة فرنسية قوية .

الفرنسية ضد الفئات المسيطرة الآمرة التي تستثمر الشعب .

واعلن الحزب الشيوعي رأيه القائل بمقاومة تخفيض الاجور، وتخفيض قيمة النقد ، مطالباً باخذ الاموال من اولي الثراء الفاحش ، مقترحاً ضرائب ضخمة تصاعدية على الثروات الكبرى بمعدل ٣٪ للثروات التي تجاوز ٥٠٠ الف فرنك الى ٢٠ بالمئة للثروات التي تتجاوز الخمسين مليوناً . وكنا نذكر بما قاله ماركس في هذا الصدد :

« ليست الضريبة التصاعدية تدبيراً بورجوازياً وحسب ، يمكن تطبيقه في صلب علاقات الانتاج الراهنة ، كبيرة كانت ام صغيرة ، بل ان الضريبة التصاعدية هي ايضاً الوسيلة الوحيدة لتوثيق روابط الطبقات المتوسطة ، في المجتمع البورجوازي ، بالجمهورية « الشريفة » ، وهي كذلك الوسيلة الوحيدة لتخفيض الديون العامة، وقهر الطبقة البورجوازية العليا عدو الجمهورية(١)»

واعلنت في تقريري ان الشيوعيين، هؤلاء الاممين، ليفخرون اكبر الفخر ، بعظمة بلادهم وامجادها التاريخية ؛ انهم يعتزون باسلافهم ابطال ١٨٩٣ ، ويعتزون بثوار شباط وحزيران١٨٤٨ ، ويتمجدون بابطال « الكومونا » .

وانهم يوجهون تحية واحدة الى جماهير الفلاحين الكادحين ،

---

(١) كارل ماركس - صراع الطبقات .

والعمال المناضلين ، والنخبة المثقفة التي تألفت منها عظمة بلادنا وامجادها .

والشيوعيون يفضحون ويحاربون اولئك الذين يلطخون تراثنا القومي ويدفعون البلاد الى دركات الانحطاط والخمول ، فنحن الورثة الحقيقيون للفكرة الثورية التي نادى بها الانسيكلوبيديون في اواخر القرن الثامن عشر ، وورثة المادية الفلسفية التي جاء بها ديدورو وهيلفيتيوس واولباخ . ونحن امتداد لتلك الجبهة التي ناضلت عند طليعة الانسانية .

وعلى رغم الخونة والطفيليين ، وفي وجوههم ، وضدهم ، نريد وحدة الامة الفرنسية . لقد اخذنا نشيد المارسيلياز عن احفاد مهاجرين كوبلنتز وخلفائهم ، والمارسيلياز انبثق من احشاء فرنسا الثورية ، فرنسا ١٧٩٢ ، فرنسا اليعقوبيين والجيروندبين ، الناهضين في وجه الملوك والاقطاعيين . وهذا النشيد هو التعبير اللاهب عن ارادة الشعب الثورية ، عن وثبته واندفاعه وبطولته وشخصيته ، انه هو الثورة...

واخيراً عكفت على بعض المسائل الداخلية في الحزب فقلت : لقد سقّى النضال حزبنا . فالنضال افرند الشيوعيين . ولكن علينا ان نبذل جهوداً جديدة ونتقدم الى الامام، علينا ان نجعل حزبنا حزباً عظيما يقود الجماهير ، ان يصبح حزبنا هو حزب الجماهير . وحيال تدفق المنتسبين الجدد اضحت لقضية الملاكات الحزبية اهمية كبرى :

اي الاعتبارات يجب ان يقودنا في اختيار الملاكات ؟

اولاً ــ الاخلاص العميق للطبقة العاملة ، والامانة للحزب ، نبلوها في المعارك ، والسجون ، والاحداث الخطيرة والمحن .

ثانياً ــ الاتحاد الوثيق بالجماهير ، لا نريد نظريين متحذلقين ، بل زعماء شعبيين يعرفون الجماهير حق المعرفة ، وتعرفهم الجماهير .

ثالثاً ــ روح المبادرة وتحمل التبعات ، والقدرة على الاتجاه والتوجيه بسرعة ، واتخاذ القرار ، باستقلال ، في جميع المواقف ، مهما كانت خطيرة ؛ والذي يخشى التبعة ليس زعيماً ، ومن لا يحسن التدليل على روح المبادرة ليس بلشفياً .

رابعاً ــ روح الانضباط والنظام وصلابة البلشفي ، سواء في النضال ضد العدو الطبقي ، او ضد الانحرافات عن خطة الماركسية اللينينية ، وفي تطبيق جميع القرارات الصادرة عن عضويات الحزب النظامية .

وختمت تقريري بهذا الشعار الذي يعبر عن ارادة الفرنسيين العميقة ، حتى ان اكثر الاحزاب حاولت تبنيه وهو : « عاشت فرنسا حرة قوية سعيدة ! » ولكن حزبنا بين جميع الاحزاب ، هو وحده الذي يستطيع ان يجعل من هذا الشعار حقيقة حية ، ولهذا نضيف الى كلماته :

« كما يريدها وكما سيجعلها الشيوعيون » .